الصّبر وأثره في تثبيت عقيدة المسلم وتقويم سلوكه

الأستاذ فاروق السعدي

الصّبر فضيلة من الفضائل التي حثّ عليها الدين الإسلامي، فهو وسيلة هامة مطلوبة لتحقيق النّصر على المصائب والنوازل والمحن على اختلاف أنواعها وجميع أصنافها.

يقول الشيخ « محمد عبده « مبديا رأيه في هذه الفضيلة:

« الصّبر خلق من أمهات الخلق، بل مسك كل خلق. الصبر ملكه في النفس يتيسّر معها احتمال ما يشق احتماله، والرّضى بما يكره في سبيل الحق ...

كلّ أمة ضعف الصّبر في نفوس أفردها، ضعف فيها كل شيء وذهبت منها كل قوة. لنضرب مثلا لذلك، نقص العلم عن أمّة من الأمم كأمتنا اليوم إذا دققت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصّبر، فإنّ من طرق بابا من أبواب العلم لا يجد من نفسه صبرا على التوسّع فيه، والتعب في تحقيق مسائله، وينام على فراش من التقليد هيّن ليّن لا يكلفه مشقة، ويلي نفسه بتعظيم من قبله. ولو كان عنده احترام حقيقي لسلفه لأتخذهم أسوة له في عمله، وكلف نفسه بعض ما حملوا أنفسهم عليه، وأعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين، ثم إذا هو تعلم لا يجد صبرا على مشقة دعوة الناس إلى علما يعلم، ولا جلدا على تحصيل الوسائل لنشر ما عنده، بل متى لاقى أول معارضة قبع في بيته، وترك الخلق للخالق كما يقولون. يجلس الطالب للدروس سنة أو سنتين ثم تعترضه مشقة التحصيل فيترك الدرس، أو يتساهل في فهمه، أو يكلّ والده من الإنفاق عليه فيصرفه إلى حرفة أخرى يظنّها أربح له فينقطع عن الطلب، ويذهب في الجهد كل مذهب، وكل هذا من ضعف الصّبر».

إنّ مادة (صبر) وما اتخذ منها وردت في كتاب الله العزيز أكثر من تسعين مرة، موزعة على سبع وأربعين سورة[1] جاءت بصيغة الفعل في أحواله كلها وبصيغة اسم الفاعل (مذكرا أو مؤنثا) والمصدر.

يقول الله عزّ وجلّ مخاطبا رسوله المختار محمدا عليه السلام: « **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرّسل ولا تتعجّل لهم**»[2] أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين كما صبر مشاهير الرسل الكرام وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى. لقد أوذوا إيذاء شديدا وأحاط بهم الألم من كل جانب، فقد

1 – يبلغ عدد سور القرآن 114 سورة (للتذكير).
2 – سورة الأحقاف / الآية 35.

استهزأ القوم بسيدنا نوح عليه السلام أشدّ الاستهزاء، وحقروه أيما احتقار، وغمزوا قناته، وأساءوا الأدب معه وأتعبوه، وبقي عدة قرون يدعو قومه لقبول الرسالة السماوية وعبادة الله والواحد القهّار فما آمن له إلا قليل، وقد أثبت خلال دعوته صبرا جميلا غير مسبوق، ولمّا بلغ السيّل الزّبى وأدرك نوح أنّ قومه لن يؤمنوا إذ كلما دعاهم استغشوا ثيابهم ووضعوا أصابعهم في آذانهم، دلالة على عدم الاهتمام بأمره، وإصرارهم على عدم السماع وحتى رؤيته هو شخصيا، مبالغة في الاستهزاء والإنكار والاحتقار.

فدعا نوح ربه فاستجاب دعوته، وكانت السفينة وحصل الطوفان، وغرق جميع المكذبين المستهزئين. ونجا نوح ومن ركب معه من البشر والحيوان.

ولم تكن معاناة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام اقل شدّة مما لقيه نوح من قومه، فقصة أبي الأنبياء مع الملك النّمرود معروفة لدى أكثر البشر، فنجّاه الله من النار وصبر على الأذى وتحمّل المشاق في سبيل نشر الدعوة إلى عبادة الخالق وترك عبادة الأوثان، لقد أدّى الأمانة صابرا متحملا كل الأضرار والأذايات الحاصلة له. وما كان الرسولان موسى وعيسى عليهما السلام بمنأى عن مثل هذه المشاق والصعوبات والعناد والسخرية التي واجهاها وتحمّلاها بصبر وجلد، وقد واجه سيدنا محمد (ص) تعنّت قومه في مكة وما حولها أثناء قيامه بنشر الرسالة والدعوة إلى عبادة الواحد الأحد، فما بخلوا عليه في إذاقته أصناف العذاب والاحتقار والهزء والسخرية، ما كان منها ماديا أو معنويا على حد سواء.

فعلى سبيل المثال – لا الحصر – لمّا توّجه (محمد) عليه السلام إلى (الطائف) يدعو إلى ربه بعدما لاقى المصاعب والآلام في مكة، وكان يرجو أن تجد دعوته لدى أهل الطائف نوعا من القبول والإيمان، لكن الذي حدث أنّ أهلها لم يكتفوا بالإعراض عنه وعدم سماعه بل قابلوه بالعنف والصدّ والجفاء وزادوا على ذلك أن أرسلوا شبّانهم وسفهاءهم يتبعونه ويرجمونه بالحجارة، فأحدثوا في جسمه جراحا ودميت قدماه. لقد نال منه الألم النفسي أكثر مما ناله من الألم الجسدي، لقد أحسّ بمقدار الظلم والاحتقار الواقعين عليه من أولئك الذين يوّد إيصالهم إلى برّ الأمان دنيا وآخرة، فأعرضوا، وهو الذي كان يؤمل أن يجد لدى سادة الطائف من يقوم بنصرته وحمايته، فلقد كانت الطائف تنافس مكة في مكانتها ومدنيتها.

ويجلس محمد عليه السلام تحت ظل شجرة بعد طرده ومطاردته من الطائف ليرتاح قليلا من هول ما لاقاه، وحينها تدمع عيناه ويحزن قلبه ويتوجه إلى ربه بهذا الدعاء[3]: **« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على الناس. أنت ربّ المستضعفين إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهّمني أو إلى عدوّ مكنته أمري ؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، غير أنّ عافيتك أوسع لي، أعوذ بك بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدّنيا والآخرة من**

3 – هناك من شكّك في صحة الخبر.

أن يحلّ عليّ غضبك أو ينزل عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك ».

كلمات هذا الدعاء عواطف مجسدة تطفح بآلام الرسول (ص) وبشعوره بالحرمان والأذى في حالتي: الفقر والغربة، والرسول يعلم كل العلم أنّ ربه حاميه من العباد وعاصمه من كل شرّ، بيد أنّه بشر يتألم ويحّس ويحزن ويبكي.

بعد الدّعاء تراءى جبريل عليه السلام لسيدنا محمد (ص) وناداه ملك الجبال قائلا: إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين (الجبلين) فعلت.

قال عليه السلام وقد هدأت النفس وأرتاح البال والصّبر يغلفه بردائه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه: « **إنّي أستأني بهم، لعلّ الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا**» أجل، فما كان في برنامج محمد (ص) أو خطته أن يهلك الله هؤلاء القوم الظالمين، إنه نبي الرحمة ورسول الهدى، هو يرمي إلى هدايتهم إلى سواء السبيل، وأمله في ذلك كبير لا تطفئه صولة الباطل وسطوته.

هكذا كان الصبر سلاح هؤلاء الرسل ذوي العزم والإرادات الفولاذية، هو سلاح متين لا يُفلّ ولا يقهر، فإن تركيبته لا يدخل فيها ديناميت ولا مواد حارقة أو لاسعة أو ثاقبة، وليس فيها دخل للذكاء أو الحماقة والغباء. السلاح هذا يفرغه الله في قلوب المؤمنين وهم يسألون خالقهم هذه النعمة (ربّنا أفرغ علينا صبرا وتوفّنا مسلمين[4]) هو وسيلتهم الموفقة بإذن الله لتحقيق أهدافهم والانتصار على خصومهم من الظالمين والمعتدين والقاسية قلوبهم. يقول تعالى (إنّه من يتق ويصبر فإنا الله لا يضيع أجر المحسنين)[5] فكل من يتقي الله فيراقبه ويصبر على المحن والمصائب والبلايا (وقد ضرب المثل بالصّبر بصبر سيدنا أيوب على مرضه) فإنّ الله لا يبطل أجرهم ولا يضيع إحسانهم بل يجزون على ذلك الصبر أو في الجزاء، فالبيضاوي يرى أنّ (المحسن من جمع بين التقوى والصّبر)[6] يقول تعالى ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإنّ ذلك من عزم الأمور﴾[7] ويقول تعالى ﴿واصبر على ما أصابك إنّ ذلك من عزم الأمور﴾[8]. والمعنى: « المطلوب من المسلم أن يصبر على المشاق والآلام التي يواجهها أثناء قيامه بالدعوة إلى الله، إلى كلمة الحق، فالداعي إليه معرّض لإيصال الأذى إليه ». قال أبو حيّان: لمّا نهى لقمان ابنه عن الشرك وأخبره ثانيا بعلمه تعالى وباهر قدرته، أمره بما يتوسل به إلى الله من الطاعات فبدأ بأشرفها الصلاة ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالصّبر على ما يصيبه بسبب الأمر بالمعروف فكثيرا ما يؤذى فاعل ذلك.

4 – سورة الأعراف / آية 126.
5 – سورة يوسف / آية 90.
6 – صفوة التفاسير / الصابوني/ مجلد 2.
7 – سورة آل عمران / آية 186.
8 – سورة لقمان / آية 17.

وفي سورة العصر يقول تعالى: ﴿والعصر إنّ الإنسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصّبر﴾. أي تواصوا أيّها المسلمون بالصّبر على الشدائد والنوائب وعلى فعل الخيرات وترك المحرّمات، فالتواصي بالصّبر واحد من أربعة أشياء تكمّل نجاة الإنسان من عذاب الله وتضمن له السعادة في الحياة الأخرى. هذه الأربعة هي: «الإيمان + العمل الصالح + التواصي والنصيحة بالحق + التواصي بالصّبر».

الآيات الكريمة الواردة في السطور السابقة والتي توصي بالصبر أحيانا وتأمر به على وجه الإلزام أحيانا أخرى هي دلالة كبيرة على أهمية الصّبر في حياة المسلم كلّ آن وحين، مهما اختلف المكان وتنوّعت الظروف وتباينت البيئة.

لقد تعرّض الرسول (ص) إلى أذية مشركي مكة طيلة سنوات الدعوة إلى الدين الجديد، أذوه ماديا وأضرّوا به معنويا ونفسيا، لقد آذوا أصحابه وأتباعه وخاصة أولئك المستضعفين من العبيد والفقراء وغيرهم؛ لقد فرضوا على بني هاشم (أهل الرسول (ص) وأقاربه حصارا اقتصاديا، واجتماعيا ونفسيا، وألجئوهم إلى الشّعب ليحتموا بها بعد ما قاطعهم أهل مكة وبقية القبائل العربية المجاورة لقريش التي تآمرت مع كبار زعماء مكة، ومع كل هذا التضييق والعوز والفقر المدقع إلى درجة أن أجبر « المحاصرون » على أكل الأعشاب والحشائش البرية؛ صبر الرسول (ص) وصبر معه أهله الأوفياء وأتباعه المخلصون حتى أذن الله بانتهاء الحصار، ليخرج الرسول وجماعته أعزاء.

كان محمد (ص) إذا بالغ أحد في إيذائه: يصبر ويحتمل، ولم يقابله بنظيره من رد الفعل والقول الفاحش. ولربّما قال أكثر من مرة « **رحم الله أخي موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر** ».

قال عليه السلام: « **الصّبر ضياء** » فهو نور يهدي صاحبه إلى طريق سوّي، ويزيل من أمامه عتمة الدرب وما يلفّه من ظلام دامس لا تبين معه الحفر والأخاديد. الصّبر ينير قلب المؤمن فيشيع فيه حرارة الإقبال على ما شرع فيه من طاعات وحسنات ويوّكل أمره إلى الله. قال عليه السلام « **من يتصبّر يصبّره الله** ». فالمسلم يصبر على ما يواجه من أضرار ويحتمل الآلام في سبيل نصرة دينه والثبات على المبدأ؛ إن الله معه يزيده قوة على قوة، وينفث في روحه الرجاء والأمل، ويبعث في نفسه الثقة فيستشعر عظمة الله ويتصاغر عدوه أمامه مهما كان صنف هذا العدو الذي أذاقه ما أذاقه من عذاب وألم؛ لقد ذاق آل ياسر شديد العذاب على أيدي كفار مكة وثبتوا على إيمانهم، قال محمد (ص) وهو لا يستطيع رفع الأذى عنهم: (صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة).

ويقول عليه السلام مخاطبا المسلم، باعثا فيه العزم الأكيد والإرادة القوية للعمل على الصبر والجلد والاحتمال: «**واعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأعلم أن**

النّصر مع الصّبر، وأنّ الفرج مع الكرب فإنّ مع العسر يسرا». وهكذا حياة المسلم في الدنيا: تتقلب فيها الأحوال، فكم من نعمة تمتع بها المسلم، وإذا بها تزول ويعقبها نقمة وبأس شديد. وكم من صحيح الجسد وعافيته موفورة وإذا بهذا الجسد يهدّه المرض وإذا تلك العافية مفقودة.

إنّ الموقف السديد للمسلم في مثل هذه الحالات أن يعتصم بالصّبر فيتحمل ويتجلد دون شكوى أو احتجاج، فالأمر مرهون بقوة الخالق وتدبيره وقدره، فعلى المسلم أن يحسن الصبر ويعرف أدب استعماله طمعا في رفعة ثوابه وأجره عند الله. يقول عليه السلام: **«إنّما الصّبر عند الصّدمة الأولى»**.

هذا الصبر على مستوى الفرد، وإذا ما أردنا ضمان الصحة النفسية للمجتمع، ينبغي لنا إتباع السلوك الإسلامي الحسن بدءا من الأسرة إلى الكتاب والمدرسة والمسجد ثم المحيط الأوسع حيث المجتمع المدني بجمعياته المختلفة ومؤسساته المتنوعة حسب الاختصاص. ففي أجواء الجماعة يحدث الاحتكاك وهذا مرشّح للنمو والتطور نحو الانحدار، نحو الأسفل، فباب المشاحنة مفتوح، وشبابيك الخصام والجدال سرعان ما تتعرض للتخريب والتكسير، وهنا تأتي فضيلة « الصّبر » كسلوك قائم على الرضى بفضل الله، وعدم الغّم والكمد عند حدوث الكرب فيؤدي الصّبر إلى الابتعاد عن المشاجرات والخصومات والمنازعات ويتم ذلك بالاستعانة بذكر الله ومجافاة الغضب ! فالغضب منهيّ عنه في سنّة محمد عليه الصلاة والسلام، قال (ص): « **إياكم والغضب فإنّه جمرة تتوقد في فؤاد ابن آدم. ألم تر إلى أحدكم إذا غضب كيف تحمّر عيناه وتنتفخ أوداجه، فإذا أحسّ أحدكم بشيء من ذلك فليضطجع أو ليلتصق بالأرض** ».

وقال كذلك: « **إنّ الغضب من الشيطان وإنّ الشيطان خلق من النار، وإنّما يطفئ النار الماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ** ». فعدم الغضب معناه كظم الغيظ في النفس والتحكّم في الأعصاب، هو الصّبر إذن. يقول عليه السلام « **ليس الشديد بالصّرعة إنّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب** »[9] والصرعة هو الذي يكثر منه صرع الناس.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رجلا قال للنبي (ص): أوّصني.

قال: « **لا تغضب** » فردّدها مرارا. قال « **لا تغضب** » (رواه البخاري) أي احتمل واصبر واحتسب الأمر لله سبحانه.

فالصابر مأجور على صبره وكظم غيظه، والله سبحانه يجازيه الجزاء الوافر. قال تعالى: ﴿إنّما يوّفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[10].

وقد أخرج الشيخان في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت:

قال رسول الله (ص): « **ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفّر الله عزّ وجلّ بها عنه حتى الشوكة**

9 – الحديث في الموطأ 12/ 1631 (حدثني عن مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة . . .)

10 – سورة الزمر / آية 10.

يشاكها ». فالصبر منه ما مناطه البدن ومنه ما ارتباطه بالنفس.

حديث آخر أخرجه الشيخان عن الرسول عليه السلام أنه قال: « **ما يصيب المسلم من وصب**[11] **ولا نصب**[12] **ولا همّ ولا حزن ولا أذى ولا غمّ حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه** ».

ومن الصبر ما يكون على النعم والآلاء التي يهبها الله لعبده ليختبره ويبتليه، وفيها حقوق لابدّ أن تؤدى قال عبد الرحمن بن عوف: ابتلينا بالضرّاء فصبرنا وابتلينا بالسرّاء فلم نصبر حيث ملاذ الدنيا ونعم الله الكثيرة. ومن الصبر ما يكون على البلايا والمحن وفيه رضا واطمئنان وعدم شكوى واحتجاج لأنّ الأمر من مقادير الله سبحانه، ومنه ما يكون على مقارعة الأعداء، أعداء الدين، أعداء الوطن، وفيه تأس وإتباع لما كان عليه الرسول (ص) في تلك المواقف، من الصابرين المتجلدين الداعين ربهم أن يثبتهم على الإيمان وأن يفرغ عليهم الصّبر ويتوفاهم مسلمين.

ففي حديث سعد بن أبي وقاص قال: قلت: يا رسول الله: « **أيّ الناس أشدُّ بلاءً ؟ قال الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس. يبتلى الرجل حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفّف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس له خطيئة** »[13]. وما ذاك إلاّ بالصّبر والاحتمال طاعة لله ولرسوله (ص).

فطوبى للصابرين وحسن مآب؛ أولئك هم المقتدون بسيرة رسول الله (ص) و قولا وعملا، فهم يضعون نصب أعينهم ما لاقاه الرسول عليه السلام وأصحابه من مشاق ومتاعب وما تعرّض له من استهزاء واحتقار وإذاية وهو يؤدي أمانة التبليغ، وكما يقول العلماء: إنّ العصمة لا تمنع المحنة فالنبي (ص) المعصوم مبتلى بأعباء الرسالة فتحمّل بجلد وقوة وصبر جميع ما عاناه من مشقة هذا العبء.

وكان النصر حليفه في نهاية الأمر.

وهكذا يتبيّن لذي بصيرة أنّ الصّبر يثبت عقيدة المسلم وفي نفس الوقت يقوّم سلوكه.

فاروق السعدي

11 – وصب: مرض أو وجع دائم.

12 – نصب: همّ – تعب– إعياء أو مشقة.

13 – قال الترمذي: حديث حسن صحيح.